أشكال التعبير في الأدب الشعبي المغاربي

تمهيد:

يزخر الأدب الشعبي المغاربي بكم هائل من النصوص الشعبية، تظهر تحت أشكال تعبيرية متنوّعة هي الشعر الشعبي (الملحون)، الأغنية الشعبية، الحكايات، السير، الخرافات، الأساطير، الأمثال، الألغاز، النكت والنداءات.تعمل جميعا على إبراز خصوصيات الشعب المغاربي من ليبيا إلى موريتانيا ، تصوّر المجتمع المغاربي بصدق، وتظهر الماضي المشترك بين شعبه.

ولايزال الأدب الشعبي المغاربي مجالا خصبا يحتاج لمزيد من الجمع والتدوين والبحث والدراسة، خصوصا الدراسات النقدية.

أولا: **الشعر الملحون ومجالاته**

يستعمل المشارقة مصطلح الشعر النبطي للتعبير عن الشعر الشعبي، ويسمى البدوي في بلاد الشام والصعيدي في مصر. ويفضل بعضهم مصطلح الشعر العامي، أمّا المغاربة فينتشر بينهم بشكل كبير مصطلح الملحون على غرار الشعر الشعبي أو الزجل. ورغم اختلاف التسميات فالجميع يتفق على أهمية ومكانة هذا الشعر. فقد لمعت في الساحة الفنية أسماء لشعراء شعبيين مغاربة مشهورين. مازالت الذاكرة الشعبية تحفظها وتردّدها.

1. **مصطلح الملحون**

ا/ **الملحون لغة**

الملحون لغة من الجدر الثلاثي (ل ح ن) ومن معانيه في معاجم اللغة ما يلي[1]:

- الخطأ أو الخروج أو الميل عن الصواب في الإعراب:"لحن فلان في كلامه إذا مال في
كلامه عن صحيح المنطق".
- التطريب وترجيع الصوت وتحسن القراءة والشعر بالغناء.
- اللغة التي فيها إلغاز وإخفاء،فلا يستطيع فهمها إلاّ الذي يعرف فك شفراتها وحلّ رموزها" لحنت لحنا: قلت له ما يفهمه عنّي ويخفى على غيره".
- ومن معاني اللحن في اللغة أيضا "الفطنة" و"التعريض"و"الإيماء".

وردت لفظة " لحن" في القرآن الكريم في قوله عزّ وجلّ :﴿ ولتعرفنّهم من لحن القول﴾(سورة محمد: الآية31) .

أي:لتعرفنهم من كلامهم الدال على مقاصدهم.

ب/ **الملحون اصطلاحا**

الشعر الملحون شعر شعبي خالفت لغته قواعد اللغة الفصحى في الإعراب أو الصرف أوالمعجم، يرتبط بمستويين من اللغة مستوى الفصحى ومستوى العامية، ينسب إلى أصحابه في كثير من الأحيان.

من جهة أخرى يشير مصطلح " الشعر الملحون" إلى مصاحبة هذا الشعر للغناء والتلحين ، فقد عرفت أشعار الملحون بأدائها من طرف المغنين، وهكذا ارتبط هذا الشعر بالموسيقى واللحن لدى العامة حتى أطلقوا على الشاعر اسم "الغناي" أو "القوال".

يقول ابن قيطون في قصيدة"حيزية":

مانشكـرش البـــاي ***** جـدّد ياغنّـــاي
بنت احمد بن الباي ***** شكري وغنايا

كما تحدث عن هذا الشعر ابن خلدون في زمانه حين قال:" وربما يلحنون فيها ألحانا بسيطة، لا على طريقة الصناعة الموسيقية".

اشتهرت منطقة المغرب العربي بتسمية الشعر الشعبي بالملحون، يقول الباحث الجزائري" عبد الله الركيبي":

"اخترت مصطلح الملحون دون غيره من المصطلحات التي استخدمها الباحثون مثل الشعر الشعبي أو العامي تماشيا مع ما شاع في البيئة الأدبية في المغرب العربي"[2].

حيث يرى أن صفة الشعبية"الشعر الشعبي"قد توحي بمجهولية المؤلف أو إلى التعبير عن روح جماعية وتعبيرا عن وجدان الشعب عامة دون الاهتمام بالقائل، أما صفة العامية في "الشعر العامي" فقد توحي إلى أن الشاعر أمي لا معرفة له بالكتابة والقراءة وكذلك المتلقي ، وأنّ قصيدة الملحون لاصلة لها بالفصحى من قريب أو من بعيد.

" فالبرغم من أنّها لاتراعي القواعد اللغوية، فهي في روحها فصيحة، لأنّ ألفاظها وعباراتها مما يدخل في تركيب الفصحى لا في تركيب العامية ونسيجها، وإن كان بعضها لايراعي البحور و الأوزان المعروفة"[3].

ويُنتقد عبد الله الركيبي في تحليله لمصطلح الشعر الملحون في كونه اعتمد على" أشعار دينية نظمت بلغة فصيحة خالية من الإعراب وأصحابها كانوا معروفين"[4].

كما يختار الباحث محمد المرزوقي أيضا مصطلح الملحون انطلاقا من لغته الملحونة والمنزاحة عن قواعد الإعراب. فيراه مصطلحا شاملا أوسع من الشعر الشعبي[5].

ومن مؤيدي الملحون كذلك الباحث " محمد الفاسي" الذي دافع عن المصطلح في مؤلفه" معلمة الملحون"[6].

2. نشأة الشعر الملحون

اختلف الباحثون في أصول الشعر الملحون في المغرب العربي، فظهرت عدّة آراء نذكرها كما يلي:

الرأي الأول: ويتبنّاه المستشرقون أمثال "جوزيف ديسبارمي J-disparmet"، حيث يرى أن أصول الشعر الشعبي المغاربي أو الشعر الملحون ترجع إلى الشعر اللاتيني و الأشعار البربرية، يقول ديسبارمي:"إنّ الشعر المغربي بصفة عامة والشعر الجزائري بصفة خاصة إنّما يستمدّ أصوله من أشعار بربرية وقبل احتلال الرومان للجزائر"[7].

ويؤكد رأيه في قول آخر:" الشعر الشعبي المغاربي ليس إلا شعرا منحذرا من اللاتينية فهو قرين للشعر الفرنسي"[8].

يحاول هذا المستشرق إبعاد الشعر الشعبي المغاربي(الملحون) عن التراث العربي. لاعتماد هذا الشعر على اللهجة المحلية و الغناء والتلحين.لكن وإن كان هذا الشعر لا يعتمد على الأوزان الخليلية فإنّه يبقى محافظا على بعض سمات كثيرة من الشعر العربي كالتصريع والروي و...إلخ.

الرأي الثاني:

يرى أصحابه أنّ الشعر الملحون ظهر مع الفتوحات الإسلامية للمغرب العربي، وازداد انتشارا ورسوخا مع مجيء الهلاليين حاملين معهم لهجاتهم المختلفة وتمركزهم في المناطق الداخلية والجنوبية، وذلك عام 443 ه،كما لا ننسى تأثير المسلمين المنسحبين من الأندلس وتأثيرهم في تكون الشعر الحضري.

لقد أثبتت الدراسات أنّ أقدم نصوص الشعر الملحون في المغرب العربي ترجع إلى القرن 16 ، من خلال التعرف على قصيدتين هما:

القصيدة الأولى لشاعر مغربي اسمه " ابن عبود" تصف معركة الوطاسيين ضد السعديين في منطقة تالدة عام 1536[9].

القصيدة الثانية لشاعر جزائري هو "سيدي الأخضر بن خلوف"، تصف معركة مزغران التي شارك فيها الشاعر مع القائد خير الدين في قرية مزغران بمستغانم.

يقول فيها:

"يافارس من تم جيت اليوم ***غزوة مزغران معروفة

ياسايلني من اطراد اليوم ***قصة مزغران معلومة

ياسايلني كيف ذا القصة ***بين النصراني وخير الدين"[10].

3/ أغراض الشعر الملحون(مجالاته)

تناول الشعر الملحون مختلف الأغراض الشعرية المتداولة في الشعر الفصيح. فلم تمنعه اللغة من التعبير عن مختلف الظواهر الحياتية، وفي هذا يقول التلّي بن الشيخ: " استطاع الشاعر الشعبي أن يقلّد كلّ غراض الشعر العربي، مدحا ورثاء وهجاء وحماسة وغزلا...إلخ. مع اختلاف في الرؤية وتباين في الأسلوب واختلاف في التصوير" [11] .فالشعر الملحون في معظمه، تقليد للقصيدة المعربة، والفرق بينه وبينها هو الإعراب. لكن هناك أغراض شعرية جديدة مبتكرة تعكس خصوصية الشعر الملحون في بلدان المغرب العربي.

ا/ الشعر الديني

يرتبط الشعر الملحون بالدين ارتباطا وثيقا ويرجع ذلك إلى النشأة الدينية للشعراء؛ لأنّهم تعلموا وتكوّنوا في الزوايا، ممّا جعل معظم نصوص الملحون تنحصر في الأغراض والموضوعات الدينية كالتوسل والتصوف والزهد والوعظ والإرشاد والمديح النبوي الذي كثرت فيه القصائد الشعبية و" انتشر بصورة قوية واضحة مع مجيء الهلاليين حاملين معهم لهجاتهم المتعدّدة"[12]. يتميّز بصدق العاطفة ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان.مثل قصيدة "أحسن ما يقال عندي" للشاعر سيدي لخضر بن خلوف. نلمس فيها عاطفة دينية صادقة، طافحة بالأمل والرجاء في شفاعة الرسول محمد صلّى

الله عليه وسلّم يوم القيامة، وإيمانا قويا يعترف في الشاعر بانّ حب المصطفى قد تمكّن من سائر جسده".يقول في مطلعها:

"أحسن مايقال عنـــــدي*** باسم الله وبيـــــك نبدا

حبّك في سلطان جسدي***ماعزّك ياعيـن وحــدة

قدر النحلة اللي تســدي*** تبني شهدة فوق شهدة

يا محـمـد أنت ســيدي*** صلّى الله عليك لبـــدا"[13]

ب/ **الشعر الغزلي**

نظم شعراء الملحون أيضا في الغزل، فالمرأة تظلّ دوما تثير اهتمام الشاعر، سواء نظم بالفصيح أو بالعامي. يعرف في الساحة الشعبية بأسماء جديدة غير النسيب والتشبيب، " فهو يطلق على العاشق كلمة المبلي، الممحون، المكبّل. ويراد من هذه الإطلاقات معنى الحب، علما أنّ كلمة الحب ليست مقبولة اجتماعيا بهذه الصيغة"[14]ويعرف أيضا بشعر الجافي، الهاجر، المرسول، المعشوق أو العشاقي والشمعة. ويعرف الحسي منه في تونس باسم" الأخضر".

لقد استطاع الشاعر الشعبي المغاربي أن يرسم لوحات فنية في غرض الغزل على طريقة الشعراء العرب القدامى، مثل قيس بن الملوح وجميل بثينة وغيرهما، مستعينا بأدوات فنية مستخلصا إياها من ثقافته وبيئته، مثل شعر المنداسي الذي يهفو إلى امرأة قلبه سلمى، حيث يقول في وصف اللوعة والهيام إلى وصل سلمى:

" طال الليل لوصل سلمى هل من فجر **** ما شفك بعذاب قلبي ياديجور"[15]

ج/ **الشعر الثوري**

كان الشعر الملحون وقت احتلال دول المغرب العربي، يقف جنبا إلى جنب مع السلاح، إذ ساهم في دفع العدو الغاشم من خلال التعبئة الثورية وشحذ الهمم، وتوصيل رسائل رمزية للثوار. إضافة إلى ذلك فقد ساهم في حفظ الكثير من الحقائق التاريخية التي لا نجد لها أثرا في كتب التاريخ.

د/ شعر وصف الطبيعة

تسمى قصائد الملحون في هذا الغرض بـالربيعيات، وتسمّى أيضا بالصبوحي أوالديجور أوالفجر،فالطبيعة مصدر إلهام للشعراء منذ القديم، لذلك عبّروا عنها بنوعيها الصامتة والمتحرّكة، وتجاوزا التصوير المباشر إلى التصوير الدّاخلي، والذي تكون فيه الطبيعة معادلا موضوعيا للشاعر، يصوّر فيها همومه وأحزانه وأفراحه.والشاعر الشعبي هو الآخر وصف الطبيعة وأبدع في ذلك. والطبيعة المغاربية،هي بيئة خصبة متنوعة التضاريس، تجمع بين البحار والأشجار والصحاري. عاش معظم الشعراء الشعبيون في أحضانها وفي أجواء البادية، وتأتّى لهم أن ينعموا بصفائها ورقّة نسيمها ويتأمّلوا برفق فيها ويتفاعلوا مع عناصرها.وكمثال نذكر أبيات لقصيدة الربيعية للشاعر **قدور بن عشور الزرهوني** في وصف الربيع:

"أقبل فصل الربيع بالجود والإحسان***دخل سعد السعود بشرى مزيانة

لبس لوز حلّة مثل الوهـــــــــــــــدان*** يتمايس كالعروس سطوة تيهانة"[16]

ه/ شعر الورشان (الرحلات الخيالية)

غرض جديد ابتكره شعراء الملحون، والورشان هو طائر الحمام، ينظم الشاعر قصيدة تعبّر عن رحلة خيالية إلى قبر الرسول أو إلى مكة المكرمة، وتأدية مناسك الحج، يتجلّى فيها شوق الرسول صلّى الله عليه وسلّم لزيارة البقاع المقدّسة، فيرسل أشواقه عبر طائر الورشان الذي يؤدي رحلة الذهاب إلى تلك البقاع.

و/ الجفريات

نظم شعراء الملحون في الجفريات رغم قلّتها، وهي قصائد استشرافية للمستقبل بطريقة صوفية، وهبة رّبانية يهبها الله لمن يشاء من عباده، ينطلق فيها الشاعر من إيمان عميق، وتأمّل في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وتعرف أيضا أنّها"التنبؤ بالحوادث المستقبلية، والواقع أنّهم يتخذون الأسلوب كمطية للنقد السياسي متّخذين لهذه الغاية إشارات ورموز يدركها المعاصرون ويفهمون مغزاها"[17].أي إخبار بوقائع ستحدث في المستقبل وأسرار من الغيب. ومن الشعراء الذين نظموا في هذا المجال الشيخ لخضر بن خلوف وعبد القادر الوهراني.

ملاحظة

يمكن إدراج قصائد الجفريات ضمن الشعر الديني.

الإحالات:

[1] ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مادة (ل ح ن).
[2] عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر،دط،2009، ص361 .
[3] المرجع نفسه،ص216.
[4] أحمد قيطون: الشعر الشعبي وإشكالية المصطلح، مجلة الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح،ورقلة، الجزائر،ع6، ماي2007، ص162.
[5] ينظر، محمد المرزوقي، الأدب الشعبي ، الدار التونسية،ط1، 1967، ص51.
[6] ينظر، محمد الفاسي، معلمة الملحون،ج1، مطبوعات المملكة المغربية، المغرب،دط،1986، ص100.
[7] العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، دط، 1988،ص 33 .
[8] المرجع نفسه، ص33.
[9] محمد الفاسي: الأدب الشعبي المغربي الملحون، مجلّة البحث العلمي، الرباط، ع1 ،1964.
[10] التلي بن الشيخ:دراسات في الأدب الشعبي،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،دط،1983، ص71.
[11]التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص.29
[12] عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص368.
[13] التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص51.
[14] التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، ص88.
[15] التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص22.
[16] ديوان الشاعر قدور بن عشور الزرهوني، ص473.
[17] محمد الفاسي: معلمة الملحون، ص39.